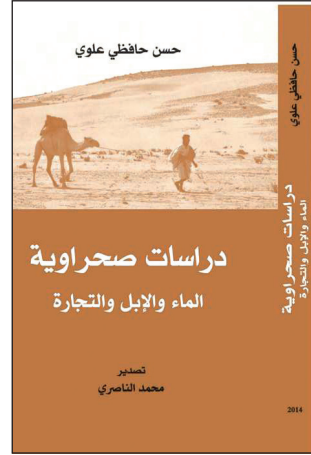


Hassan Hafidi Aloui. - *Dir s t  ahraouiyya, al-m 'u wa-al-ibilu wa-al-tij ra, d r ab  raqr q, al-rib t*, 2014, 314p.

حسن حافظي علوي، دراسات صحراوية:
الماء والإبل والتجارة، (الرباط: دار أبي رقرق
للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2014)، 314 ص.



يندرج كتاب "دراسات صحراوية: الماء والإبل والتجارة" لمؤلفه حسن حافظي علوي في إطار ما يمكن وسمه بالطفرة غير المسبوقة في مجال إنتاج المعرفة عن الصحراء التي ميزت السنوات الأخيرة، بفضل تضافر جهود مجموعة من الباحثين، ودعم بعض المؤسسات من قبيل معهد الدراسات الإفريقية، ومركز الدراسات الصحراوية التابعين لكلية الآداب بالرباط، ووكالة الإنعاش والتنمية الاقتصادية والاجتماعية لأقاليم الجنوب. وهي الجهود التي أسهمت في النهوض بالدراسات الصحراوية، لتنضاف الأعمال التي نشرتها وتشرها أو تدعمها، ومن ضمنها هذا الكتاب، إلى الرصيد المغربي من إنتاج المعرفة عن صحراء المغرب والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها.

الكتاب في أصله مجموعة مقالات، تشكل بعضا من حصاد اهتمامات الباحث لما يربو عن عقد من الزمن، ويجمعها خيط ناظم دقيق وائتلاف واضح، سمح بإدراجها في مؤلف واحد، انتقى له الباحث عنوان دراسات صحراوية. وقد كان موقفا حين أضاف عنوانا فرعيا جمع ثلاثي الماء والإبل والتجارة، لما له من أهمية في حياة أهل الصحراء عامة، و"لأنه العمدة في جميع مهماتهم وعليه مدار كل أنشطتهم" بتعبير المؤلف. وعلى امتداد 302 صفحة من الحجم المتوسط، فصل الباحث في كثير من قضايا هذا الثلاثي؛ فبحث في المجال الصحراوي المغربي وخصوصيته، والقفر وجبروته، والماء وأهميته مع ندرته، والإبل وأدوارها ومنافعها، والإنسان الصحراوي ومهاراته المكتسبة وقدرته على التأقلم والتكيف.

وفي كل هذه القضايا، استطاع الباحث أن يقدم معلومات غزيرة ومتنوعة عن المجال المدروس، دون أن يسقط فيما يشبه الإطناب أو طغيان نفس المقال، كما أثبت استطاعة فائقة على تعقب معظم المصطلحات والتسميات المرتبطة بالصحراء والماء والإبل والتجارة في المعاجم اللغوية وفي مختلف أنواع المصادر والمتون، رابطا بينها وبين همولتها البيئية والاجتماعية والثقافية.

يضم الكتاب بين ثناياه مدخلين أساسيين، خصص الأول لنقد المصادر المتوفرة عن المجال المدروس، والثاني لضبط الأسماء والمفاهيم المرتبطة بالصحراء والقفر والواحة. أما لب العمل، فوزعه الباحث على محاور ثلاثة، أولها ينبش في الماء والإنسان بصحراء بلاد المغرب والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها، والثاني يبحث في الإبل وأدوارها وعلاقتها بحياة الإنسان الصحراوي، في حين يعيد الثالث طرح أسئلة قديمة وجديدة عن التجارة عبر الصحراء، ويلامس أجوبتها بمصادر جديدة وإضافات كثيرة في الرؤية والمنهج والمقاربة. ويختتم المؤلف كتابه بسؤال التاريخ والتنمية في صحراء بلاد المغرب، والسبل الكفيلة بالحفاظ على ما راكمه أهل الصحراء من تجارب، وما اكتسبوه من مهارات في تدبير إكراهات المجال وتحدياته.

يبدأ المؤلف كتابه بفصل خصصه لنقد المصادر المتوفرة الخاصة بالبلاد الصحراوية؛ ويؤكد في البداية على ندرة المتوفر منها، مرجحا أن تكون صورة الصحراء والقفر في ذهنية المؤلفين، والتي تحيل إلى الأرض الخلاء الجذباء الموحشة، من الأسباب المفسرة لعدم اهتمام هؤلاء بالكتابة عنها، واكتفائهم بتتبع سير حركة التجارة عبر الصحراء، ووصف مسالكها وأهوالها، مع إشارات طفيفة إلى ساكنة هذه المجالات.

يؤكد الباحث أن أخبار الصحراء ظلت مضطربة في كتب المشاركة إلى حدود القرن 4هـ / 10م، وقد تحسنت هذه الصورة مع أوصاف ابن حوقل في صورة الأرض، كما صارت أفضل مع أبي عبيد البكري في مسالكة الذي عده الباحث أول من وفر معلومات فريدة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لصحراء بلاد المغرب، والمجالات الواقعة إلى الجنوب منها. أما من جاؤوا بعد البكري، فلم يضيفوا شيئا كثيرا بتعبير الباحث، وكان لابد من انتظار القرن 7هـ / 13م ليحصل الباحث على معطيات جديدة عن هذه البلاد، خاصة مع كتاب الجغرافيا لابن

سعيد المغربي والعبدي في رحلته. ثم أصبحت الصورة أكثر وضوحا مع ما أنتج من مؤلفات خلال القرن 8هـ / 14م وما بعده، ومنها مباحث الفكر ومناهج العبر لمحمد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الوطواط (ت. 718هـ / 1318م)، ونخبة الدهر في عجائب البر والبحر لشيخ الربوة أبو عبد الله محمد الأنصاري، وتقويم البلدان لأبي الفداء، ورحلة التيجاني، ومسالك الأبصار للعمري، ورحلة ابن بطوطة، ثم وصف إفريقيا للحسن الوزان الذي عدّه المؤلف من أهم المصادر عن صحراء بلاد المغرب. وفي كل الأحوال، فإنه على الرغم من أهمية ما قدمته هذه المصادر من معطيات شكلت ملاذ المهتمين بدراسة هذه المجالات، إلا أنها، وفقا لما توصل إليه الباحث، تظل نادرة لأنها ركزت فقط على وصف المسالك والنقل والتنقل في الصحراء وعبرها.

ينتقل المؤلف بالقارئ، في انضباط تام لمسار الكتابة عن صحراء المغرب والمجالات الواقعة إلى الجنوب منها، إلى نقد ما أنتجه الأوربيون من معرفة عن هذه البلاد؛ فيؤكد مرة أخرى على الخلاصة نفسها، والمتمثلة في اضطراب معلومات الأوربيين عنها في الخرائط والأطالس التي تعود إلى فترة العصر الوسيط، وتأخر اهتمامهم بها حتى مطلع العصر الحديث، حيث ستتحسن هذه الصورة مع الرحلات التي تمت في هذه الفترة، وإن لم يتمكن أصحابها من اختراق المجالات المذكورة، إذ فشلت معظمها، وانتهى بعضها بمأساة. وكان لا بد من انتظار القرن 19 لتتحسن معلومات الأوربيين عن هذه البلاد، بعد نجاح بعض الرحالة في استكشاف الصحراء من الداخل، وخاصة مع نشاط فرق البحث التابعة للمؤسسات العلمية والعسكرية الفرنسية، والتي استطاعت مسح هذه المجالات وتغطيتها بالخرائط الطبوغرافية. وينبه الباحث إلى أن الاهتمام الأوربي بمجالات الصحراء صار أكثر حرفية خلال ثلاثينات القرن 20 مع المؤتمر الذي نظمه معهد الدراسات العليا المغربية، ونشرت أعماله في مجلة هسبيريس سنة 1930. ثم أحدثت بعد ذلك مؤسسات ومعاهد خصيصا للنهوض بالمعرفة العلمية عن صحراء بلاد المغرب.

ولما كانت كتابات الجغرافيين والرحالين والمستكشفين قد اقتصرت بالأساس على وصف المسالك التجارية والملاحات، مع إشارات طفيفة إلى أخبار بعض القوافل، فإن التعرف على أحوال أهل الصحراء وما يتصل بحياتهم اليومية لن يتيسر، حسب المؤلف، إلا بفضل كتب النوازل التي وضعها فقهاء تراب البيضان

وبلاد السودان في أمور العبادات والمعاملات، وهو ما دفع بالباحث إلى أن يقدم عرضاً دقيقاً لما توفر منها، وما تحتزنه من معطيات يمكن الاعتماد عليها للإلقاء أضواء كاشفة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بالمجالات الصحراوية والمناطق الواقعة إلى الجنوب منها.

وعلى امتداد الصفحات التي وضعها الباحث للتعريف بالإنتاج النوازي الخاص بالبلاد الصحراوية، سيلاحظ القارئ حرص حافظي علوي على مراجعة كثير من الآراء المتواترة على هذا الإنتاج ومُنتجيه، وهي الآراء التي طالما قللت من شأن فقهاء هذه المجالات ومردوديتهم العلمية والفقهية. وفي سعي حثيث لدحض هذه التصورات، والتعريف في الآن نفسه بنوازل هذه المجالات وما تكتنزه من معطيات فريدة ومهمة، عرّف الباحث بكثير من فقهاء هذه المجالات منذ العصر المرابطي، معتبراً، في تتبع دقيق لمنحنى الإنتاج النوازي بهذه البلاد، أن القرن 12هـ / 18 م شهد نهضة حقيقية في أدب النوازل، ليتطور بشكل أكبر خلال القرن 19 وما بعده.

يشتمل الرصيد النوازي للبلاد الصحراوية، حسب المؤلف، على عدد مهم من المصنفات المجموعة، إضافة إلى عدد كبير من النوازل غير المجموعة ظلت متداولة في أيدي تلامذة أصحابها. وعلى الرغم من إقرار الباحث أن الأهم في الإشكالات المرتبطة بهذه النوازل، بالنسبة للمؤرخ، هو صحة نسبتها إلى أصحابها، وما تقدمه من معطيات تخص الحياة اليومية لسكانه هذه المجالات، فإنه لم يتوان في الخوض في نقاش قديم ومستمر ارتبط بمسألة ما سمي بفقه البوادي الذي نُظر إليه بنوع من الدونية والتشكيك من قبل فقهاء الحواضر. وقد قدم، في هذا الصدد، أهم الأسباب المفسرة لهذه النظرة، معتبراً أن لا مبرر واضح لها مادام أن المتوفر مما خلفه فقهاء هذه المجالات يشي بإمكان من الفقه والنوازل على غرار نظرائهم في الحواضر. وقد ميز حافظي علوي بين فتاوى البلاد الواحية، وفتاوى البلاد الصحراوية والسودانية، وقدم جرداً تفصيلياً لأهم متون هذه الفتاوى.

انتقل المؤلف في الفصل الثاني إلى ضبط اسم الصحراء، وما ارتبط به من مفاهيم أخرى من قبيل بلاد القبلة والواحة والقفر، ويبدو أن القارئ سيلحظ دقة متميزة لدى الباحث في تأصيل هذه الأسماء والمفاهيم. كما أن تتبع ما قدمه في

هذا الفصل، يسمح بتجاوز ذلك الاعتقاد الأولي بوضوح هذه الأسماء. وقد بدا واضحا أن تعقب تسميات الصحراء في المعاجم اللغوية، واستعمالاتها في مختلف المراحل التاريخية لم يكن الغرض منه إبراز الثراء المعجمي لهذه اللغة، بل النفاذ إلى المعاني الدقيقة لهذه التسميات في علاقتها بحمولتها الثقافية والبيئة والاجتماعية.

في هذا السياق، استهل الباحث نبشه في تسميات هذا المجال بمعنى بلاد القبلة، مفصلا حديثه عن الأصل اللغوي لهذه التسمية، وفي معناها التداولي من خلال المصادر. كما بحث في معاني الصحراء والقفر، إذ رغم وضوحها في المعاجم واستعمالات اللغويين، إلا أنها تظل غير دقيقة في استعمالات الجغرافيين والمؤرخين والرحالة القدماء، مشددا على أن الباحثين ببلاد المغرب لم يوفقوا في الغالب في دراسة مفهوم الصحراء بطريقة علمية، وأرجع السبب إلى تأخر اهتمامهم بها، ولأن كلمة الصحراء لم تستعمل في الأدبيات الجغرافية. كما استند الباحث في تأكيده على ضرورة المقاربة المفاهيمية لهذا الاسم على عدم ثبات هذا المجال عبر العصور حسب المعطيات الطبيعية، وأكثر حسب المعطيات السياسية، وكذا وضعية التجارة الصحراوية. وكلها عناصر أسهمت في اختلاف تسميات هذه المناطق باختلاف الفترات التاريخية. وختم المؤلف فصله هذا بتأصيل لغوي واصطلاحي لمعنى بلاد الواحة، ولاستعمالاته في مختلف أنواع المصادر.

بعد هذا التأصيل المصدرى والمفاهيمي، ضمّن المؤلف المحور الأول الخاص بتيمة الماء دراستين خصصت الأولى للتعريف بأسلوب قسمة الماء المتملك بين الشركاء في أغلب واحات بلاد المغرب، والأساليب المعتمدة في ذلك، مركزا على الأداة المستعملة في التقسيم، ويتعلق الأمر بـ"القلد" الذي استعمل لغة واصطلاحا بمعنى الحظ من الماء، وبمعنى أداة لقياس زمن السقي في علاقته بقوة الصبيب. وقد توقف المؤلف في هذا الصدد عند مختلف تسميات القلد، مع الإشارة إلى الاختلافات المتصلة بالمواد المصنعة منها وأشكالها وأحجامها، فتحدث عن "تناست" و"نطاست" و"أقسري" و"أوزكلا" و"الشكفة" و"الخلطافة" و"السطل" و"أنفرط" وغيرها، وكلها تسميات حرص الباحث أن يدقق في أصولها ومجالات استعمالها في مختلف بلاد المغرب. ومن جانب آخر، وبكثير من التفصيل، عدد الباحث وحدات قياس زمن الماء وتسمياتها ومعانيها، والمشرّفون على قسمة الماء وألقابهم في مجالات الصحراء. وفي كل هذا، استطاع أن يمزج بين دراسة

الجانب التقني في أساليب تقسيم الماء المتملك، وبين المبادئ المتحكمة في إنتاج هذه الأساليب سواء تعلق الأمر بالبيئة الطبيعية وإكراهاتها، أو بالتنظيمات الاجتماعية وأشكال تدبير المصالح ودفع المضار داخلها.

انتقل المؤلف في الشق الثاني من تيمة الماء ببلاد الصحراء إلى رصد خبرة أهل هذه البلاد في تدبير ندرة المياه، وانعدامها أحيانا. وقد وفر الباحث للقارئ معلومات دقيقة عن أسباب هذه الظاهرة في الصحراء، سواء تعلق الأمر بالظروف الطبيعية أو غيرها من العوامل التي تضع الإنسان الصحراوي أو العابر للصحراء أمام خطر الموت عطشا. بالمقابل، توقف حافظي علوي أيضا على الأساليب المعتمدة لدى سكان هذه المجالات في تدبير لحظات غياب الماء والحيل المعتمدة في رشف الشفة وترويق المياه، وكذا المواد المستعملة في حفظ المياه لمدة أطول، وفي معالجة الأمراض الناتجة عن شرب المياه الفاسدة.

من جانب آخر، حفر الباحث في مختلف طرق الاستدلال على وجود الماء أو ما سمي في مجالات الصحراء بالريافة والنصّات، مركزا على مهارات أهل الصحراء في استنباط المياه، وتحديد أماكن وجودها وطرق الحفاظ عليها، كاشفا عن كثير من التقنيات التي ابتكروها، وعن غنى وتنوع ما راكموه من رصيد معرفي وتقني في هذا المجال.

في المحور الخاص بالإبل، يستطيع القارئ أن يقف، مرة أخرى، عند الدقة المميزة لأسلوب المؤلف ومنهجه في دراسة قضايا هذا الكتاب، فقد خصص صفحات عدة للبحث في معنى الإبل والجمل في اللغتين العربية والأمازيغية، مستعينا في ذلك بنتائج علم الآثار ومناهج اللسانيات. كما رصد البدايات الأولى لظهور هذه الدابة في صحراء بلاد المغرب، والجدل الذي ميز آراء الباحثين في هذا السياق، مؤكدا صعوبة تحديد البدايات الأولى لاستعمال هذا الحيوان نقلا ومطية في صحراء بلاد المغرب.

وقد تتبع الباحث في هذا الفصل تاريخ تربية الجمال منذ العصر المرابطي، وكذا استعمالها في النقل والتنقل عبر الصحراء. ومن أجل هذا، رصد مجالات انتشارها أو قتلها، والعوامل التي أسهمت في ذلك، كما عدد أجود أنواع الإبل وأثمانها، ومعدلات سيرها في الصحراء، وحمولتها والأساليب المستعملة في الرفع

من هذه الحمولة. ثم انتقل إلى دراسة تلك العلاقة الوثيقة بين اعتماد الإبل في النقل والتنقل عبر الصحراء، وخاصة صبرها على قلة المياه وقدرتها على تحمل الظروف القاسية لتلك البيئة الطبيعية. وعلى عادة الباحث، لم يغفل كثيرا مما يحيط باستعمال هذا الحيوان والأمراض التي تصيبه، وكذا الأدوية التي استعملها أهل الصحراء لمعالجتها، بل وفي الاستعمالات الطبية للحمّل وبوله لدى هؤلاء.

في المحور الخاص بالتجارة، يرصد المؤلف ظروف التنقل بالقفر والأخطار المهددة له، مميزا في مصادر هذه الأخطار بين العوامل الطبيعية من قبيل شدة القيقظ والهجير، وهبوب العواصف الرملية، وتحول معالم الطرق بسببها، وقلة الماء وفساد طعمه ولونه، ولسع العقارب ولدغ الأفاعي ونهش الهوام... والعوامل الثقافية المرتبطة بالمتخيل، وما ترسب في أذهان الناس من تمثيلات عن أهوال الصحراء ورهبته كالاعتقاد في استهواء الجن والشياطين للمسافر المنفرد، وما تدوول من صور عن الغول والقطرب والطامة، والاعتقاد بالتطير من بعض الإمارات والتشاؤم بسوء الطالع، والإحجام عن السفر في الأيام النحسات وغيرها. كما لم يفته أن يشير في الأخير إلى أن تجاوز مختلف هذه الأخطار، خاصة الطبيعية منها، كان مشروطا بامتلاك مهارات ما انفكت تزداد غنى بفعل ما راكمه أهل الصحراء والعابرين لها من خبرة ودراية.

انتقل المؤلف، بعد هذا، لوصف دقيق للمسالك التجارية العابرة لصحراء بلاد المغرب ولأهم الملاحات، وما فرضه التنقل في القفر من تنظيم للقوافل التجارية وأشكال حمايتها، كما عرّف بأنواع الصادرات والواردات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي، وما نجم عن عملية التبادل التجاري من انتعاش اقتصادي بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. وقد تميزت هذه الدراسة، عن غيرها، باستغلال متن نوازلي مهم في دراسة تاريخ المجالات الصحراوية خلال العصر الحديث، لما تضمنه من معلومات فريدة عن مختلف مناحي الحياة الخاصة بساكن هذه المجالات، ويتعلق الأمر بنوازل محمد بن المختار بن الأعمش العلوي الشنقيطي (ت. 1107هـ / 1696م). وقد استعان حافظي علوي بهذا المصدر، وبغيره لرصد أهم ملاحات الصحراء، وأهمية الملح في التجارة مع بلاد السودان، مفصلا في أنواع هذه المادة واستخداماتها في الطب والصناعات وطرق استخراجها وأساليب نقلها وأثمنتها.

يختتم حافظي علوي كتابه بسؤال التاريخ والتنمية، يتساءل عن مصير كل ما راكمه الإنسان الصحراوي من مهارات عبر قرون عديدة من العيش في المفاوز المجهلة، وعن كل تلك الخبرات والأساليب والحيل الناجعة التي اعتمدها أهل الصحراء لتدبير إكراهات مجالهم، والتي بدأت تختفي مع التبدل المستمر في أنماط العيش خلال الزمن الحاضر، ومع رياح الحداثة التي ما انفكت تعمل بلا كلل في الصحراء لتغير معالمها. إنها دعوة إلى استثمار إرث الماضي أولا في الحفاظ على خصوصية المجال وثقافته وموروثه، وثانيا في تنمية هذه المجالات من خلال استغلال ذلك الماضي على الوجه الأمثل.

نحن إذن أمام عمل دقيق، يراجع ما أنتج من معرفة عن صحراء بلاد المغرب والمجالات الواقعة إلى الجنوب منها، يُوجه الباحثين والمهتمين إلى المصادر الكفيلة بالإجابة عن كثير من الأسئلة العالقة فيها، خاصة منها ما يخص المجتمع والذهنيات، يدقق في التسميات الخاصة بهذا المجال في علاقتها بحمولتها الثقافية والبيئة والاجتماعية، ويعتمد مداخل أخرى لمساءلة قضايا الماء والإبل والتجارة. وفضلا عن ذلك كله، يقدم للقارئ ذاكرة توثيقية، يستطيع من خلالها استكشاف دواخل مجتمع الصحراء، وهو يدبر إكراهات المجال ويدلل بعضها من صعوباته.

حميد تيتاو

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس